حركية الإصلاح من النظام إلى الانتظام: مدخل معري في قرآني

عباس معارز*

مدخل، أو الصالح القرآني:

الإصلاح هو الفعل النافع –شرعاً- للإنسان في نفس ونفوس الآخرين، ثم في الأشياء من حوله، في مقابل الفعل غير المشروع. فهو أي فعل الإصلاح محاولة الإنسان الحريص على نفع نفسه وغيره، إعادة الأمور إلى نصابها، والأشياء إلى الانتظام على وفق نظامها الكوني المستجيب لحركية الزمان والمكان. أما تحقيق تلك الإعادة فكفيل – بالإضافة إلى المنفعة- باستخلاص رؤية صائبة وموفقة لعلاقة الأشياء بما وراءها، ثم بعلة وجودها.

ويقيناً أن المرآة التي تنعكس فيها الرؤية الصائبة لاستخلاص حقيقة الأشياء وما وراءها، هي مرآة القرآن. فالقرآن هو المعيار الحقيقي والمنعكس الشاف عن حركية الأشياء وهي تنتظم على وفق نظامها الكوني أو وهي تخالف نواميس ذلك النظام. وإلا فإن أية مرآة غير مرآة القرآن، ومهما حرصت على الشفوف والمعيارية، عاجزة عن عكس تلك الحركية عكساً مطابقاً ومقادداً لما يجب أن تكون عليه الحركة التي هي علامة ودليل على مدى تعالق وانسجام حركية الكون الخارجي (الأرض والسماء وما يتعلق بهما) مع حركية الكون الداخلي (القلب والعقل ما يتعلق بهما من حواس).

نعم سيحصل عكس للحركة، ولكن (العكس) الذي هو غير عكس القرآن، عكس مصغّر أو مكبّر مرّة، ومشوه مرّة أخرى. إذ لو كان أمر (العكس) غير القرآني معيارياً، لأدرك الإنسان –أي إنسان- الحقيقة المعرفية التي تحقق لفعله في الأشياء انسجاماً مع الفعل الكوني للأشياء فيه. وكذلك، لو كان ذلك (العكس) معيارياً، لما تعددت النظريات والأيديولوجيات والشعارات والقراءات الكونية البشرية وهي يبطل ويخطئ بعضها بعضاً على اختلاف العصور والأمكنة.

مرآة القرآن إذن، تبيان للصالح السماوي، الصالح الأصل الذي لا بدّ من الترتب عليه والتفرع منه والانبثاق من أرضيته. فالصالح السماوي الأصل هو الكلي والمجرد القابل

* محاضر في جامعة القادسية، العراق.

للتجسيد والتمثّل في كل زمان ومكان. أما المجسّد والمتمثّل لذلك الصالح الأصل الذي هو فطرة الله وصنعته المتقنة، فهو الإنسان، أي هو (المصلح) الذي يفيد من ذلك المجرد الثابت والكوني، فيعمل على تجسيده التجسيد الذي ينسجم مع حركية الداخل والخارج في الأشياء جميعاً، كائناً ومكاناً وزماناً. وفي مقابل التجسيد هناك التجريد. فمهمة المصلح بالإضافة إلى تجسيد المجرد وتفعيله حياتياً أو مجتمعياً، هي تجريد المجسّد خاصة حينما يصير ذلك المجسد ماضياً، أي حينما تقضي الكينونة الاجتماعية أو الاقتصادية أو السياسية أو الدينية أو الفنية ... بتغييره لأن حركة جديدة للمكان والزمان والكائن قد دفعت به إلى حيث صار ماضياً. فمهمة المصلح إذن تجريد ذلك الفعل الإصلاحي الذي هو تجسيد للصالح التكويني الجعلي، بعد كل مرة من مرات التجسيد، أي بعد كل مرة من مرات التحقق الواقعي لفعل الإصلاح على يد عالم أو قائد أو زعيم. .. إلخ، وذلك كي يتحول ذلك المجسّد من حيث هو تجربة الشعب الفلاني، أو الأمة الفلانية، أو الشريحة كذا، أو المجتمع كيت... إلى إرث معرفي لا بد من الاستناد إليه والارتكاز على جاهزيته بغية خلق جاهزيات جديدة منسجمة مع ما تتطلبه الحركة الكونية للإنسان والأشياء في هذا العالم الثابت المتحرك في الوقت نفسه.

الصالح القرآني إذن، هو الصالح الكوني الذي يرتفع على ضرورات التغيير. فصلاحه صلاح قيمي مجرد، لا يعني الإصلاح الأرضي البشري تحرراً منه أو انعتاقاً وإنما هو، أي الإصلاح الأرضي؛ "إعادة صلة بالقيم بشكل فعال، وتحرر من العادات والتقاليد السلبية التي تعيق الحركة المجتمعية الرشيدة".[1] فالعودة إلى القديم، شرط سماويته، هي قمة التجديد وغاية المعاصرة والتحديث شرط الوعي بالمتغيرات الجديدة في الكون والحياة؛ الوعي الذي يؤمن بحاجة المجتمعات الإنسانية إلى حركة تجديدية دائمة تنبثق من عمق الحياة الإنسانية الزاخرة بمتطلباتها الحياتية الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية ... وها هنا يصير التجديد، أو الإصلاح ضرورياً.

---

(١) محمد العليوات، التجديد الاجتماعي، تأملات في التأهيل المجتمعي، سلسلة منتدى الكلمة (٢)، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م: ص ١٩.

لا شك أن لكل حركة منظمة عنصرين رئيسين، هما التغيير والثبات، أما الثاني منهما فهو محور الحركة[1]. وبموجب هذه الحقيقة نرى إلى حركة الإصلاح كما يدعو لها القرآن الكريم على أنها حركة منظمة ذات عنصرين رئيسين؛ الثابت والمتحرك. أما الثابت فهو المفروغ من صدقه وموضوعيته ومناسبته لكل مكان وزمان. وهذا هو الذي رآه الدين – ممثلاً بالقرآن- صالحاً، فوصفه بالصلاح، وصفاً ثبوتياً، من مثل قوله تعالى: ﴿ والذين آمنوا وعملوا الصالحات لندخلنّهم في الصالحين﴾ (العنكبوت: ٩). أو قوله تعالى في صلاح الأنبياء: ﴿ ووهبنا له إسحاق ويعقوب نافلة وكلاً جعلنا صالحين﴾ (آل عمران: ٣٩). ولا يقضي هذا الثبوت بالتناقض وعدم الانسجام بين الديني والدنيوي، أو بين الكوني القرآني والأرضي البشري، وكذلك لا يترتب على الاعتبار بذلك الثبوت ومراعاته، الابتعاد عن التجديد أو الإصلاح الأرضي أو البشري، وذلك لأن تعطيل الاعتبار بالتجديد الأرضي أو البشري، يعني العيش خارج ضرورات الزمان والمكان من حيث هما متحركان متغيران. .. وعلى الطرف الآخر فإن الأخذ بالإصلاح البشري والانسجام مع حركية الزمان والمكان لا تعني مجافاة الثابت ومخالفته ... فالثابت هو المضمون الشامل والمجرد والغني الذي يتهاوى أمامه أي امتياز فكري تجديدي. وإن كان ثمة امتياز حقاً فليس ذلك الامتياز بحاصل حقيقة إلا إذا انبثق من ذلك الأصل. فإذا انبثق الامتياز الفكري الإصلاحي من ذلك الثابت وصدر عنه بوصفه منهلاً، أعتد به واستنهل من منهله. فليس ثمة غاية للامتياز الإصلاحي إلا إبراز كونية الأصل وكفاءته وسعته وشموليته المكانية والزمانية، وهو يبيّن كل شيء، بما في ذلك حركة الإصلاح بوصفها ركناً رئيساً من أركان ديمومة البشرية في المكان والزمان.

حركة الإصلاح إذن وهي تستند إلى ثابتها القرآني، والمنبثقة من أرضيته هي الشكل الخارجي المتأخر عن المضمون والمتكوّن به. ومهمة المصلح هي تعليق المعنى أو المضمون أو الكلي العميق بالكائن الخاضع لحركية الزمان. وما ذاك إلا لأن الذي يقدر على إبلائه الزمان لا يتجاوز الشكلي والمادي جماداً أو نباتاً أو حيواناً أو إنساناً. أما الحقيقة الكونية الأصلية والعميقة فثابتة ومتمنعة على الزوال[2].

---

(١) انظر: الشهيد مرتضى مطهّري، الإسلام ومتطلبات العصر، تعريب علي هاشم، مجمع البحوث الإسلامية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٣هـ- ١٩٩٢م: ص ١٦.

(٢) انظر الشهيد المرتضى، مصدر سابق، ص١٥.

الإصلاح من الثابت إلى المتحرك:

جاء في التنزيل العزيز قوله تعالى: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾ (غافر: ٥٨).

ويتبين الآية الكريمة، يتضح لنا مما نحن بصدده، أن الأساس الذي يبني عليه القرآن الكريم منهاجه في إصلاح الحياة الفردية والمجتمعية الإنسانية، هو أساس الوعي والمعرفة. على أن طريقي المعرفة القرآنيين، هما طريق خارجي حسي، وآخر داخلي؛ فكري وجداني. وبموجب هذه الحقيقة نرى إلى الإصلاح من حيث هو ظاهرة قرآنية، على أنه مستند إلى مدخله المعرفي (الإبيستمولوجي)، أي أنه مستند من حيث هو مظهر فردي أو مجتمعي إنساني إلى تحقق مفهوم العلم كما يرى القرآن إلى العلم، وهو يقرن بين العلم الحسي والإيمان القلبي، مما يعني أن تحقيق الإصلاح بوصفه مخرجاً أو ممارسة ذات شعب مختلفة، علمية واجتماعية وسياسية واقتصادية. .. الخ، لا بد أن يسبقه تحقق إصلاح المدخل من حيث هو منهاج وشِرْعَة، أي من حيث هو رؤية خاصة وظاهرة تاريخية مشروطة بظروفها، ثم من حيث هو سمة علم وعمل، لا بدّ للمصلح من ترسّمها والتعلم بعلمها وعلامتها. فهو أي المدخل المنهجي، متبوع لا تابع وثابت لا متحرك، وكوني لا محدود أو مقيد. فإذا التزم المصلح بشرائط المنهج، حقّ له أن يقوم بالإصلاح، ووجب على الآخرين بعد التحقق من شرائط المنهج، اتباعه.

إن مهمة المصلح إعادة الأمور إلى نصابها وبما يتماشى مع ذلك (الصالح) الذي حدد القرآن أركانه وعناصره، حاجة ماسة وضرورة قائمة لكل ما هو مادي أو هالك، وإلا فإن الثابت غني مستغن، ومتميز التميز الموضوعي الذي ليس به حاجة إلى البرهنة على تميزه. فالذي به حاجة حقيقة هو المصلح نفسه ثم الآخرون ممن يتوجه إليهم بإصلاحه: رعيته، شعبه أو طلابه أو جنوده أو أسرته. .. الخ. ولأن حاجات الإنسان متجددة بتجدد المكان والزمان، فالإصلاح إذن حاجة مستمرة، أو كائنة. وكينونتها تقضي بدوام عودها إلى الأصل الكوني، إلى الثابت القرآني. فالإصلاح البشري استحداث دائم لذلك الحدث الكوني، حدث الخلق. ولأن الذي يتبدل ويتغير في المخلوقات هو ماديتها أو تركيبتها الشيئية لا روحها

وسر وجودها، فالاستحداث الإصلاحي إذن، استحداث في المادي والشيئي، أو فيما يتعلق بهما، أي ما يتعلق بالحياة العامة من وسائل وأدوات وآليات عمل وتعايش، ومعاملات، وعادات. .. إلخ. "وعلى هذا، فإن المتبوع مكلّف، من منظار القرآن الكريم بأن يقوم بالقيادة على أساس المعرفة والتحقيق، والتابع مكلف أيضاً أن يكون محققاً في تبعيته"[1]. وهكذا ولأن الإصلاح، في جوهره، دعوة لإعادة إحلال الحق محل الباطل، والإحسان محل الإساءة، والعلم محل الجهل، من خلال التمييز المعرفي بين الحق والباطل، وبما يتماشى مع حركية المكان والزمان، مايَزَ القرآن الكريم بين الأعمى والبصير، والذين آمنوا وعملوا الصالحات والمسيء.

فإذا قرأنا الآية المباركة قراءة أخرى، خلصنا إلى أن القرآن يربط بين جانبي المعرفة؛ الجانب الروحي والجانب المادي، وبناء عليه، فإنه يربط بين الإيمان ممثلاً ب "الذين آمنوا"، والعمل، ممثلاً ب "وعملوا الصالحات". إن مما لنا تبينه من خلال ذلك الربط، هو ما يسميه البلاغيون العرب القدامى (التتميم)، أو (التكميل)، ويعنون به؛ إيفاء المعنى حظه من الجودة ونصيبه من الصحة، ثم لا يغادر المتكلم معنى يكون فيه تمام المعنى الأول وإيفاؤه حظه من الجودة والصحة والحسن إلا أورده.[2] ولقد تحقق لآية ﴿الذين آمنوا﴾ تتميمها بعطف ﴿وعملوا الصالحات﴾ عليها. فآية ﴿وعملوا الصالحات﴾ تتميم في غاية البلاغة، التي بذكرها تم الكلام وجرى على الصحة والوفاء. .. فإذا بحثنا عن مظهر آخر لهذا التقارن البليغ، وجدنا قوله تعالى: ﴿من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة﴾ (النحل: ٩٧).

فإذا تذكرنا أن الدين قد حدد معالم الإيمان وركائزه الثابتة التي لا تقبل التبديل والتغيير بتغير الأمكنة والأزمنة، خلصنا إلى أن تتميم الإيمان بعمل الصالح، يعني أن للإصلاح معالم وركائز ثابتة لا تقبل التبديل والتغيير بتغير الأمكنة والأزمنة وإن قبلت

(١) آية الله جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن، ترجمة دار الإسراء للتحقيق والنشر، دار الصفوة، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م، ص ٨٧.

(٢) انظر أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، الجزء الثاني، مطبعة المجمع العلمي العراقي، ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م، ص ٢٨-٢٩.

الملاءمة والمساجمة مع ما هو شيئي أو دنيوي، باعتبار أن الإصلاح مستلزم ما هو قابل للركود والفناء والهلاك والفساد...

ثابت الإيمان إذن، مقارن ثابت الصلاح. والذي للإيمان من الثبوت مقابل الذي للصلاح من الثبوت. فإذا كان الإيمان بشكل عام؛ "عبارة عن ارتباط يتحقق بين النفس وأمر ما"[1] حقاً أو باطلاً، كذلك الإصلاح، ارتباط يتحقق بين النفس وأمر ما حقاً أو باطلاً. أما الإصلاح الحق، فهو ما رآه الحق سبحانه حقاً، وأما الباطل فغير ذلك. وبموجب هذا علينا أن نميز بين ما جاء في القرآن بصيغة اسم الفاعل من الثلاثي (صلح): (صالحاً، الصالحات، الصالحين. ..)، وما جاء فيه أيضاً ولكن بصيغة اسم الفاعل من غير الثلاثي (المزيد بهمزة: أصلح)؛ (المصلحين) أو بصيغة المصدر منه؛ (الإصلاح)... وأيضاً كل ما يتعلق بهما من صيغ أخرى؛ ومنها صيغتا الفعل؛ (صلح) و (أصلح)، شرط ارتباط الأخير بالفاعل البشري. وسنتبين هذه الحقيقة بشيء من التفصيل في موضعها.

إن كون الإيمان طريقاً داخلياً للمعرفة، يعني أن ثمة فرقاً كائناً بين (الصلاح) و (الإصلاح). وعلينا أن نميز بينهما. فالإصلاح عود بالأشياء إلى فطرتها الأولى، أي إلى صلاحها الكوني. أما الصلاح فهو الثابت الداخلي الكائن في الأشياء جميعاً، والذي على المصلح استسقاءه حينما يعمد إلى ممارسة فعل الإصلاح الخارجي. .. وهاهنا وكما يميز القرآن بين الإيمان والإسلام﴿قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان في قلوبكم وإن تطيعوا الله ورسوله لا يلتكم من أعمالكم شيئاً إن الله غفور رحيم. إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله أولئك هم الصادقون﴾ (الحجرات: ١٤-١٥)، علينا أن نميز بين نوعين من الإصلاح في ضوء مرتكزات الإيمان الصادق في الآية الثانية من آيات (الحجرات) السابقة. فالإصلاح نوعان؛ إصلاح دنيوي، يبدأ وينتهي بالدنيا وأسبابها، وهذا إصلاح خارجي. وإصلاح دنيوي يبدأ بالدنيا ولكن دون توقف عندها، فالدنيوي المادي الظاهري الكائن وراء فعل الإصلاح ليس هو الغاية، وإنما هو الوسيلة المنبثقة من الغاية والمنتظمة مظاهرها جميعاً على وفق نظام تلك الغاية. فالإصلاح هاهنا محاولة الانتفاع الدائم والتسخير المستمر لأسباب الدنيا وزينتها بغية تحقيق بلاغة السعي إلى الآخرة. وبناء على ذلك تصير أسباب الدنيا مرتبطة بالمكان والزمان. وما هو زينة في مكان قد لا يكون كذلك في

(١) آية الله جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن: ص ٢١٩.

مكان آخر وزمان مختلف. وبالمحصلة فإن ما يصلح للإنتفاع اليوم قد لا يصلح غداً. ولكن الذي تحرص عليه الفلسفات الغربية، هو التجديد أو الإصلاح بما يتماشى مع الإيمان بأن الحياة الدنيا هي كل شيء. وهذا ما يجعل من ذلك الإصلاح معنياً بمغريات الدنيا وزينتها غير معني بما وراء تلك الزينة والحكمة من وجودها. وسواء كان الإصلاح ذا وجهة دينية أو ذا وجهة دنيوية فإن الصراع الكائن بين فكرتي الإصلاح هاهنا، مردّه إلى الإيمان وقوته أو صدقه وبغض النظر عن صوابه أو خطأه، حقّه أو باطله. وكلما كان الإيمان أقوى وأرسخ وأصدق، ركز فعل الإصلاح ركائزه في أرضية المجتمع الذي يحتفي به، ونجح في تأسيس فعله الحضاري الخاص به. أما إذا رافق فعل الإصلاح أو سبقه الارتياب ﴿ثم لم يرتابوا﴾ (الآية)، وعدم بذل الوسع والطاقة، ثم عدم توضّح الغاية من وراء الفعل، وإذا توضحت فعدم الإخلاص لها أو عدم المجاهدة في السعي إليها، إذا كان كل ذلك حاصلاً، فشل فعل الإصلاح البشري سواء كان أخروياً أم دنيوياً. وفي ضوء هذا ننظر إلى الإصلاح المنبثق من منهاج وشرعة القرآن، على أنه "لا يكون عبارة عن التماس الوسائل لمسالمة الجاهلية، ولا هو عبارة عن إعمال خلط جديد من الإسلام والجاهلية"[1] وإنما هو دوماً عود بالأشياء إلى خلوصها، وما خلوصها إلا حينما تنبثق من صلب التوحيد.

إن عودة سريعة إلى ذلك التقارن الكائن بين الإيمان والصلاح، ثم إلى أسّ الإيمان ومرتكزه الرئيس، ألا وهو الإيمان بالله وحده لا شريك له، تخلص بنا إلى أمرين؛ أولهما المؤاخاة بين الوحي والعقل، شرط الإيمان بأولية الوحي وأصالته وإحاطته ومعصوميته. وثانيهما الانطلاق من الواحد إلى المتعدد في قراءة فعل الإصلاح. فالله سبحانه واحد أحد، والمؤمنون عدّة ومختلفون ألواناً وألسنة وتقوى. والذي ينتظم المؤمنين جميعاً هو الانطلاق في القول والعمل من شرعة ومنهاج الواحد الأحد، على مر الأزمنة واختلاف الأمكنة. وبالمقابل لا بد أن يكون المصلح واحداً، وأول المصلحين هو الرسول ﴿إن إريد إلا الإصلاح ما استطعت. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب﴾ (هود: ٨٨). وهاهنا يصير فعل الإصلاح فعلاً فردياً سواء على مستوى الرسول أم على مستوى الولي الذي يلي الرسول في إرادة الإصلاح شرط التوكل على الله والإنابة إليه. "وبالطبع لو كان الشخص الذي يستند إلى كلامه معصوماً، وكان الكلام الذي يسمع منه يقيناً وقطعياً من حيث السند وجهة الصدور والدلالة، لأمكن -في هذه الحالة- أن يجعل كلامه الحد الأوسط للبرهان في العلوم

(١) انظر أبو الأعلى المودودي، موجز تاريخ تجديد الدين وإحيائه وواقع المسلمين وسبيل النهوض بهم، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، ص ٤٧، ٤٨.

العقلية، لأن كلام المعصوم سيكون برهانياً بعد إقامة البرهان على عصمته وتكون له قيمة علمية ويقينية"[١].

ولأننا لسنا معصومين، لا بد من الانطلاق في الإصلاح من كلام المعصوم وفعله، أي من سنته في الإصلاح. فالمعصوم هو الواحد الذي لا بد من رد الكثرة إليه، وبالرد يتحقق انتظام الكثرة على وفق نظام الواحد الثابت واليقيني الذي يعني مما يعني قرآنياً عدم الاعتقاد بنظرية المعرفة المادية التي لا تركن إلى الواحد الثابت، لأنها أصلاً لا ثابت لديها لتركن إليه، وهذا ما جعل من مصلحيها مذبذبين قلقين متغيرين تبعاً لتغير المكان والزمان. فهم منخرطون في حركية المكان والزمان غير قادرين على تسخير هذه الحركة إنسانياً لصالح الجماعة، وإن قدروا على تسخير الطابع المادي طابع (الزينة) لتلك الحركة.

نعم إن المصلح ليس نبياً، ما في ذلك شك، "ولكنه يكون في طبعه ومزاجه أقرب إلى مزاج النبوة"[٢] فإذا كان كذلك، حالفه التوفيق الذي يحالف الأنبياء، وجاء فعل الإصلاح الذي يريده فعلاً منسجماً مع حركية الأشياء؛ الأمكنة والأزمنة والكائنات، تلك الحركية، التي هي تسنن كوني على وفق ثبوت السُنَّة، أو هي سُنّة انتظام الكثرة على وفق بلاغة الواحد. فالتجدد إذن من السنن التي أودعها الله سبحانه في الكون "فهو من عظيم لطفه التكويني، فلولا هذا التجدد المستمر للكون والحياة لما استمر هذا النظام الكوني البديع في تناسق وجمال"[٣].

الإصلاح والتجديد والتغيير.. بلاغة التعالق:

جاء في التنزيل العزيز، قوله سبحانه: ﴿ومن يهد الله فهو المهتدي ومن يضلل فلن تجد لهم أولياء من دونه ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً مأواهم جهنم كلما خبت زدناهم سعيراً. ذلك جزاؤهم بأنهم كفروا بآياتنا وقالوا أإذا كنا عظاماً ورفاتاً أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾ (الإسراء: ٩٧، ٩٨).

إن مما قد يوحي به ظاهر الآية الأولى، هو أن مسألة الهداية والضلالة مما ليس للإنسان دخل في تحققه. ولكن قوله تعالى: ﴿وهو المهتدي﴾، حيث تعود كلمة (المهتدي) على الإنسان، يدحض هذا الوهم تماماً. فالاهتداء مترتب على وجود الهداية من حيث هي استعداد

(١) آية الله جوادي آملي، نظرية المعرفة في القرآن: ص ١٤٢.

(٢) موجز تاريخ تجديد الدين، ص ٤٨.

(٣) التجديد الاجتماعي، ص ٢٤.

أو فطرة أو سنة كونية ثابتة وعميقة، وما تحققه إلا نتيجة لفعل الإنسان نفسه. فإذا صدق الإنسان في السعي إلى تحقيق فعل الهداية، وفقه الله إلى ذلك، وما التوفيق إلا الهداية إلى ما يزيده صدقاً وإيماناً. وهذا ما يقودنا إلى قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد: ١١).

فالتغيير إذن، هو فعل الفرد في نفسه، أي في العمق السحيق منه، وكذلك هو فعل الأمة، وأياً كان نوع ذلك الفعل، كأن يكون علمياً معرفياً أو اجتماعياً أو اقتصادياً أو سياسياً.. إلخ. فإذا تحقق لذلك الفعل شروعه الصادق ضاعف وسارع الله سبحانه تحقيقه وجني ثماره، باعتبار أن الحسنة بعشر أمثالها، على أن ذلك الفعل لا يتوقف إلا حينما يكون الفعل مدعاة لتصادم العقل والوحي. فإن لم يتصادما فالتغيير واجب كل لحظة من زمان، وكل مساحة من مكان. في جسد الفرد أو في جسد الأمة، وتحديداً فيما هو قابل للحركة في ذلك الجسد، أي فيما هو قابل للفناء أو الفساد، أي فيما هو قابل للتحويل والتبديل. وكل شيء قابل للتحويل والتبديل سلباً أو إيجاباً حقاً أو باطلاً، إلا سنة الله في الشيء، فليس لسنة الله، التي هي سنة الحق والصلاح والثبوت، تبديل أو تحويل.

فالتغيير إذن سنة الله في الأشياء، وذلك لأن كل ما هو شيئي قابل للتغيير فإن لم يغير إيجاباً، تغير سلباً. لذا يصير التغيير واجباً وأكيداً وبليغاً بالنسبة للمؤمن الصادق غير المرتاب، وإلا فإنه ليس مزاجه مزاج الصادقين. فالتغيير إذن سنة وصفة، والإنسان متسنن وموصوف وكذلك الأمة، ومن بعد الإنسان والأمة الأشياء جميعاً.

ولكن، ما هي وسيلة الوعي بالتغيير وضرورته بالنسبة للفرد وبالنسبة للأمة، وكيف يتم لطالب التغيير التحقق من أن فعل التغيير مدعاة لتصادم الوحي والعقل فيتوقف؟ أي ما هي الوسيلة التي نحقق بها ذلك الاهتداء، فإن عدمناها كان الضلال، وصار التغيير عدولاً عن الحق إلى الباطل، وعن الصلاح إلى الفساد، وعن المشروع إلى غير المشروع، وعن النافع إلى الضار؟

إن حال الضالين في الحياة الدنيا، وهم المبصرون الناطقون السامعون ظاهراً، العمي البكم الصم باطناً، هو ذاته حالهم يوم القيامة إلا التبديل والتحويل، بحيث يصير الظاهر الإدراكي باطناً، والباطن الإدراكي ظاهراً. فالعمي الدنيوي عمى نفسي، وكذلك البكم

والصم. فالتغيير إذن، وبشكل عام، مرتبط، بل مرتكز على وسائل الإدراك إن حقاً أو باطلاً. أما التغيير الحق فهو الذي لا يركن إلى ما يرى ويسمع ويُطرح بوصفه فكراً مادياً خاوياً، وإن كان لا بدّ له من الاهتداء بما يرى ويسمع ويطرح، فإن تعارض المطروح بصراً وسمعاً وعقلاً مع صوت الوحي ونور البصيرة وفكر القلوب، لم يؤخذ به. فإن ركن الفرد وركنت الأمة إلى ما يرى ويسمع ويطرح الركون الذي يمنعه ويمنعها من الاستماع والإبصار والإيمان بصوت الداخل ونوره وفكره، حصل التغيير كذلك، ولكن حصوله هاهنا حصول السلب والضلالة، يسبقه التشكك والارتياب والتقاعس عن العمل بذلك الداخلي الذي فطرت عليه النفوس، فرداً وأمة، صوت الفطرة السليمة، وصوت الوحي.

في آية غافر: (٥٨)، سابقة الذكر، نفى سبحانه وتعالى المساواة بين ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات﴾، و ﴿المسيء﴾، بناء على عدم المساواة بين الأعمى والبصير. بل إن نفي المساواة بين الإصلاح والإساءة في الشطر الثاني من الآية ليس طباق نفي المساواة بين العمى والإبصار، مع ما بين النفيين من تماثل، بدليل مجيء الآية هكذا: ﴿وما يستوي الأعمى والبصير والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء﴾. فالـ: (لا) الفاصلة بين الذين (آمنوا وعملوا الصالحات)، و(المسيء)، لم ترد فاصلة بين (الأعمى) و(البصير)، مع أن الـ: (ما) النافية، نافية لشطري المساواة. وتبيان هذا يخلص بنا إلى أن الإصلاح المرتكز على الإيمان الحق ليس من جنس الإساءة المرتكزة على الإيمان الباطل، بينما مرجع البصر والعمى إلى حاسة واحدة. ومن جهة أخرى تبين الآية عن حكمة أن العمى العضوي يؤدي إلى تفتق بصر أو بصيرة نفسية غالباً، بينما يؤدي الإبصار العضوي لدى المتشككين إلى عمى نفسي غالباً.

وبناء على ذلك نرى إلى أي فعل إصلاحي (مجازاً) لا يرتكز على الإيمان، على أنه إساءة. ثم نرد الإساءة، أية إساءة إلى الركون إلى الحس الخارجي المنفصل عن الحس الباطن. ولهذا جاء قوله سبحانه في آية الإسراء: (٩٧)، وهو يبين عن جزاء الضالين يوم القيامة: ﴿ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عمياً وبكماً وصماً...﴾. وبموجب ذلك نرى إلى أي إساءة أو سوء فهم لفعل الإصلاح، على أنه نتاج إساءة الإفادة والانتفاع من البصر والسمع، وما بينهما، أو وجامعهما العقل، باعتبار اللغة دليلاً على الفكر، فلا فكر بلا لغة ولا لغة بلا فكر، ثم لا فكر ولا لغة، بلا سمع وبصر...

إن الركون إلى البصري- السمعي – العقلي، دون القلبي البصيري الوجداني، يعني الانتهاء إلى الارتياب والشك والتقاطع مع مرتكز مهم من مرتكزات الإيمان، مرتكز (ولم يرتابوا). ولا يؤدي هذا التقاطع إلا إلى الانشغال بما هو آني وزائل ومرحلي وترفيهي، وبالجملة الانشغال بما هو دنيوي. وكذلك هو شأن التجديد حينما يركن إلى المظاهر الحسية. وهذا ما لا ينسجم مع النظرية القرآنية للمعرفة، ومن ثم للإصلاح.

لقد خلص بنا استقراؤنا لشبكة المفاهيم المتعالقة بمفهوم الإصلاح، إلى مفهومين رئيسين يعالقان مفهوم الإصلاح، ألا وهما: (التجديد) و (التغيير). أما مصطلح (التجديد) فمصطلح إجرائي بثقناه من كلمة (جديد) القرآنية. وكذلك مصطلح (تغيير) الذي أجريناه من كلمة (يغيروا) و (مغيراً) ... في قوله تعالى: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾ (الرعد: ١١)، وقوله سبحانه: ﴿ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وأن الله سميع عليم﴾ (الأنفال: ٥٣).

أما كلمة (جديد)، (جديداً)، فقد جاءت مقترنة بكلمة (خلق)، (خلقاً) في مثل قوله تعالى: ﴿وإن تعجب فعجب قولهم أإذا كنا تراباً أإنا لفي خلق جديد﴾ (الرعد: ٥)، وقوله عز وجل: ﴿أفعيينا بالخلق الأول بل هم في لبس من خلق جديد﴾ (ق: ١٥). وقوله سبحانه: ﴿ألم تر أن الله خلق السماوات والأرض بالحق إن يشأ يذهبكم ويأت بخلق جديد﴾ (إبراهيم: ١٩). وكذلك هي في ثماني مرات وردت فيها كلمة (جديد) في القرآن الكريم.

أما مصطلح الإصلاح، فقد ورد صريحاً في القرآن الكريم في سورة البقرة: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير﴾ (آية: ٢٢)، وفي سورة النساء في معرض الحديث عن المشكلات الزوجية: ﴿إن يريدا إصلاحاً يوفق الله بينهما﴾ (النساء: ٣٥). وورد بصيغة الفعل المتعدي بالهمزة (أصلح)، في: ﴿فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾(الأنعام: ٤٨)، وكذلك ورد في آيات أخرى سنتبين بلاغتها في موضعها من البحث. .. وأيضاً ورد: ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ (الشعراء: ١٥٢). وورد على لسان موسى لهارون: ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ (الأعراف: ١٤٢). .. إلخ.

لقد قرّ لنا في موضع سابق من البحث، أن ثمة فارقاً كبيراً بين (الصلاح) و (الإصلاح)، ولقد رددنا (الصلاح) إلى نحو قوله تعالى: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك

ثواباً وخير أملاً﴾ (الكهف: ٤٦)، أو قوله جل شأنه: ﴿وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾ (البقرة: ٢٥). فقلنا إن (الصلاح) هاهنا صلاح كوني تكويني، موضوعي، مرتفع على الحكم البشري أو المحاكمة البشرية. فهو صالح بذاته، وصلاحه الموضوعي هذا يجعله مناسباً لكل مكان وزمان. فهو القيمة المجردة والمعيار المتعالي الذي لا بد من علوق الفعل البشري الإصلاحي بموضوعيته علوق النطفة بجدار الرحم.

أما (الإصلاح) فهو الفعل البشري الذي يجيء تالياً لحركية الأشياء حينما تؤول الأشياء حركية منحرفة عن صلاحها التكويني، في خلال الزمن، وبسبب الفعل البشري نفسه: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾ (الروم: ٤١). وكذلك فعل الإصلاح البشري دائماً، فهي محاولة غايتها إرجاع الأشياء التي ظهر فيها الفساد إلى ناموسها الأول، ناموس الصلاح الإلهي، سواء كان ذلك الفعل داخلياً أم خارجياً، فردياً أم جماعياً.

عودة سريعة إلى الدلالة المعجمية للأصول اللغوية للمصطلحات الثلاثة، (الإصلاح)، (التجديد)، (التغيير)، تكشف لنا عن:

١. صَلَحَ: ضد فسد، والإصلاح: ضد الفساد. وقد أصلح الشيء بعد فساده: أقامه.

٢. جَدَدَ: الجَدُّ: أبو الأب وأبو الأم. وجُدَّةُ كل شيء: طريقته. وجُدَّتُه: علامته. وجادَّةُ الطريق: سميت جادة لأنها خطة مستقيمة ملحوبة. والجِدَّة: نقيض البلى. وجَدَّ الشيء يجدُّه جداً: قطعه.

٣. غَيَرَ: تغير الشيء عن حاله: تحوّل. وغيَّره: حوله وبدله. وتغايرت الأشياء: اختلفت[1].

فإذا عرفنا أن الفساد في اللغة، هو ضد ونقيض الصلاح. وأنه يعني مما يعني الإساءة والقطع[2]، خلصنا إلى أن تقابل الفساد والإصلاح في القرآن الكريم، يعني تقابل الحسن والإساءة والوصل والقطع، فالإصلاح هو إعادة وصل المقطوع والإحسان إلى الأشياء بإرجاعها إلى ما تحولت عنه من نظامها الداخلي. فالإصلاح إذن بهذا المعنى، لا يتعلق بالإنسان من حيث هو فرد أو من حيث أمة حسب، وإنما يتعلق بالصفة الترابية أو الشيئية الكائنة في الكائنات

---

(١) ابن منظور (ت ٧١١هـ)، لسان العرب، دار صادر، مادة (صلح)، (جدد)، (غير).

(٢) انظر نفسه، مادة (فسد).

جميعاً. ولهذا يقول القرآن: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس﴾. وهو هنا، وكما نفهمه بلاغياً ومعرفياً، لا ينحصر بظهور الجدب في البر والقحط في البحر كما فهم أو كما بان للمفسرين القدامى[1]، وإنما هو شامل عام لكل ما هو ذو طبيعة ترابية مائية، أي لكل ما هو شيئي. فهو إذن لا ينحصر في الأرض من حيث هي ذرات تراب، وفي البحر من حيث هو حياة بحرية، وإنما يتعدى ذلك إلى القطع والإساءة والاختلاف لـ: (ومع) النظام الكوني التكويني الصالح. فإذا أعدنا قراءة الآيات التي وردت فيها كلمة (جديد) في القرآن، في ضوء تقارنها البلاغي وتعالقها المعرفي، خلصنا إلى أن التجديد متعلق بكل ما هو جسدي: ﴿أإنا لمبعوثون خلقاً جديداً﴾، ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾، ﴿وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبئكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد﴾. (سبأ: ٧). بينما اقترن (التغيير) بكل ما هو نفسي، وداخلي، كما ورد في القرآن الكريم: ﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى لا يغيروا ما بأنفسهم﴾.

وبموجب ذلك كله، نرى إلى فعل الإصلاح على أنه أعم وأشمل من فعلي التغيير والتجديد. أما التجديد فمرتبط بالجانب المادي المرئي الخارجي. وأما الإصلاح فمرتبط بالجانب القيمي القلبي الداخلي. وأما التغيير فمرتبط بالجانب الداخلي ارتباط فعل الإصلاح مع فارق مفاده، أن الداخل القابل للتغيير حقاً أو باطلاً، هو الداخل النفسي، أي داخل الغريزة والتصورات والممارسات والعادات السلوكية. وهكذا يصير الإصلاح بالنسبة إلى الكون والحياة مثيل القلب بالنسبة إلى الإنسان، ويصير التجديد مثيل الجسد، ويصير التغيير مثيل النفس. .. أما الصالح الكوني فهو النظام الداخلي الذي لا يقبل التجديد أو التغيير. فمثله مثل النظام الوراثي التكويني، أو مثل الشفرة الوراثية الداخلية بالنسبة إلى أعضاء الإنسان أو حواسه.

إن قطع العلاقة الكائنة بين الجسد والروح، تعني فناء الجسد، ولن يفنى الروح. وإن الإساءة للروح بممارسة الجسد باطلاً، تفسد النفس ولا يفسد الروح. وإن التحول عن جادة

---

(١) انظر البغوي، تفسير البغوي المسمى معالم التنـزيل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٤هـ - ١٩٩٣م، ج٣، ص ٤١٧. ومحمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط١، ١٤٢٣هـ- ٢٠٠٢م، ج٢، ص ٤١٦.

الحق لا يضر بالجادة وإنما يضر بالسالك أو الجاري فيها. وهكذا هي علاقة الأشياء بصلاحها الداخلي. وهكذا هي علاقة الأمة بوصفها جسداً، بثباتها الكوني المجرد (الدين) بوصفه روحاً. وهكذا هي علاقة كل مترتب بأصله وكل متحرك بثابته، وكل متكوّن بمكوّنه، وكل جسد بروحه، وكل عقل بوحيه، ثم كل أمة بنظامها القيمي المجرد الذي يجيء الدين على رأسه.

وبموجب ذلك كله، نقرأ الإصلاح القرآني، قراءة أخرى. فنراه ذا شعبتين؛ شعبة مادية خارجية، وشعبة غير مادية داخلية. أما الشعبة المادية فتختص بإعادة صياغة الأشياء، صياغة مناسبة لحركية الزمان والمكان. والصياغة صياغة خارجية تعمل على مداخلة أو استتبات الشيء في الشيء ووسم الشيء بالشيء، وتكوين الشيء بالشيء من خلال إعادة نفخ القيمي في تلك المسافة الفاصلة بين القديم والجديد والصغير والكبير والخاص والعام، والأمة والأمم، والمجتمع والمجتمعات. .. إلخ، وبما يمكننا من التوسم بسمة أو ببيان (الملابسة) القرآنية ملابسة ﴿بل هم في لبس من خلق جديد﴾. فإذا تمكنا من التوسم هيأنا لمحتوانا المعرفي؛ الفكري والنفسي والقلبي، سعة في مساحة الحركة التي يستلزمها ثراؤه. وهذا ما يخلص بنا إلى الشعبة الثانية للإصلاح، ألا وهي شعبة الإصلاح الداخلي، غير المادي، متمثلاً بإصلاح نفس الفرد، ثم نفس الأمة. فإذا تم لنا إصلاح ذلك المحتوى من خلال إرجاعه إلى صالحه الكوني، تحقق لنا النهوض بذلك المحتوى، لا ليصل إلى ما هو حاضر حسب، بل ليصل إلى إقامة العلائق الداخلية أولاً وهذا هو الأهم، بين الماضي والحاضر. ومن ثم يتحقق لنا إعادة تشكيل كل ما هو متصف بالطبيعة الترابية- المائية من وسائلنا المعرفية، والمقصود بها وسائلنا الحسية- العقلية.

وإلا فإن (ظهور الفساد في الأرض)، أوسع من أن يكون محصوراً بالجدب والقحط كما قلنا سابقاً. إن ظهور الفساد في البر والبحر، نتيجة أو علامة على ظهوره في الطبيعة البرية- البحرية (الترابية- المائية) الإنسانية، أي ظهوره في معطيات وسائل الإنسان الإدراكية (سمعه وبصره وعقله)، ولهذا ورد ذكر ما يتعلق بالسمع والبصر والعقل في آيتي الإسراء: (٩٧، ٩٨) اللتين انتهت الثانية منهما بكلمة (جديداً) مقترنة ب (خلقاً)، فيما ورد ذكر (عمياً وصماً وبكماً) في الأولى منهما. وما ذاك إلا لإساءة التصرف بالوسائل المعرفية التي يقطع

الكافرون تعالقها بالثابت الروحي.. وبعد ذلك فإننا لا نجانب الصواب إذا ما ذهبنا إلى أن الكثير من الأمراض والقصورات العضوية أو المرضية المتعلقة بالنطق والتعلم والرؤية والسماع، مردها إلى ظهور ذلك الفساد، بل إنها علامة عليه، ونتيجة من نتائجه. فإذا نظرنا إلى مظهر آخر لذلك الفساد الذي ظهر في الأرض، نظرنا إلى المرأة باعتبارها المقابل البلاغي للأرض، فالأنوثة تبيان أرضية الإنسان والذكورة تبيان سماويته، فإذا بحثنا عن ظهور آخر، وجدنا جسد الإنسان باعتبار العلاقة بين الروح والجسد مقابل العلاقة بين السماء والأرض. وكذلك الأمر في الأسرة بالنسبة إلى رب الأسرة، والمتعلمين على طريق النجاة بالنسبة إلى العالم الرباني، والفقه الأصغر بالنسبة إلى الفقه الأكبر.. إلخ، وبالجملة، ظهور الفساد في الدنيا بالنسبة إلى الآخرة. ولكل مكان وزمان مظهر فساد مماثل لسابقه في الجوهر، ومخالف له في المظهر..

بناء على ما سبق، نذهب إلى أن التجديد بوصفه ممارسة بشرية، يعني إعادة صياغة الوسائل المعرفية والمادية المجتمعية وغيرها، صياغة جديدة تناسب الحركة الكونية للمكان والزمان وما يجري فيهما من فعل اجتماعي أو اقتصادي أو سياسي أو علمي، فرديّ أو جماعي، إسلامي أو غير إسلامي. فالتجديد هو الفعل الإنساني في ما كان صالحاً ضمن سياقاته المكانية والزمانية ولم يعد كذلك ضمن سياقات جديدة، بغية خلق ذلك التواصل الكوني بين الصغير والكبير والجزئي والكلي والظاهر والباطن والمحدود واللامحدود والإنساني والكوني. أما الإصلاح، فهو الفعل الإنساني في ما ظهر فساده في البر والبحر، ثم في الممارسات الإنسانية ذات البناء المادي، وغير المادي، الداخلي والخارجي. فالإصلاح لا يقتصر على الشكل وإنما يتعدى الشكل إلى المحتوى الذهني والنفسي أي أنه يتجاوز الحسي إلى المعنوي، شرط فساده. وما الفاسد كالقديم أو الفاني، الفاسد فاسد خارج اعتبارات الزمان والمكان والعقل الإنساني، ماضياً وحاضراً ومستقبلاً. أما القديم فغير مناسب للحركة الجديدة للمكان والزمان والعقل الإنساني. أما الذي يستلزمه الإصلاح حينما يتعلق بالمحتوى فهو التغيير، فالتغيير الحق هو التحول، أو هو الرغبة الصادقة والنية المخلصة والإرادة الحكيمة القادرة على ترك ومجافاة ونبذ العلوق بالفاسد طمعاً بمساجمة ومناسبة ومداخلة وملاقحة الصالح وإلا فإن التغيير كما ورد في القرآن، تبيان التحول مما هو حق إلى ما هو باطل. فالتغيير الحق أول الإصلاح وبدء شروعه. فإذا تم التغيير على أن تمامه تمام داخلي، وافق فعل الإصلاح التوفيق الإلهي. فالتغيير إذن فعل داخلي معنوي، بدليل

أن مما جاء في دلالة (غير) معجمياً، هو "غير: من حروف المعاني"[1]. أما تداول مصطلح التغيير، على أنه الإصلاح أو التجديد، فتداول مغلوط. وكذلك تداول مصطلح التجديد بقصد إرادة فعل الإنسان فيما هو محتوى لا شكل. ..

وبموجب ذلك كله، يصير التجديد وسيلة الإصلاح. ويصير الإصلاح غاية التجديد. فالإصلاح مدخل والتجديد مخرج. ولا انفصال للمخرج عن المدخل، فإذا كان ثمة فصل، صار التجديد اتباعاً أعمى لما هو مادي دنيوي تزييني دون أدنى اهتمام بما هو قيمي ومعياري ومعرفي. وهذا ما يفسر ما يتصف به الفعل التجديدي الإسلامي المعاصر –جلّه- من محدودية واعتباطية وحسية، ثم هو يفسر تلك الهوة الفاصلة بين الحداثة والتحديث، "فليس هناك تقدم في التحديث من غير تقدم في الحداثة والذي حصل في العالم العربي في نظر البعض هو تحديث بلا حداثة، الأمر الذي جعل التحديث مشوهاً وفوقياً"[2]، والقصور المعرفي الذي نتج عنه ذلك القصور في ممارسة التحديث، "هو افتراضه تناقض الحداثة والهوية، وعلى هذا الافتراض كان لا بد من التضحية بأحدهما وبلا تردد كانت التضحية بالهوية التي فهمت على أنها تقاليد جامدة وتراث ميت وماضوية مترهلة. وليس على أنها تمثل روح الأمة وشخصيتها الذاتية، وجذورها الممتدة في عمق التاريخ، وسياج وحدتها وتماسكها".[3]

وكمثل ذلك القصور من حيث تأثيره ونتائجه السلبية وما يترتب على ذلك كله من ضياع وتخبط، وإن باختلاف، هنالك قصور معرفي آخر، يخلط أصحابه بين الذي لا يخضع أو لا يندرج تحت تسمية القديم والجديد، لأنه مما لا يوصف بالقدم والجدة، ألا وهو الكتاب السماوي –القرآن-، وبين الذي يجوز عليه وصف القدم والحداثة، ألا وهو كل ما ترتب على وجود ذلك الكتاب –عدا السنة من حيث هي محتوى- من قراءات معرفية وممارسات مجتمعية. وعلى العكس من هذه النظرة المعادية للقديم عن علم أو جهل، نظرة أخرى تقدس ذلك الذي يجوز عليه الوصف بالقدم والجدة وما يترتب عليهما من بلَى وفناء. ولا قدسية إلا للكتاب. ولكن أصحاب هذه النظرة يتغلقون على ذلك القديم. فقد وجدوا آباءهم كذلك، وإنهم على آثارهم سائرون.

إن القصورات الثلاثة السابقة، جميعاً تستدعي الإصلاح؛ لأنها جميعاً أدت وتؤدي إلى الفساد في الأرض، ثم في الطبيعة الأرضية لخليفة الله في الأرض، فرداً أو أمة. بل إن فسادها

(١) انظر لسان العرب، دار صادر، مادة (غير).

(٢) زكي الميلاد، الفكر الإسلامي قراءات ومراجعات، مؤسسة الانتشار العربي، ط١، ١٩٩٩، ص ٧٥، ٧٦.

(٣) المصدر السابق، ص ٧٠.

لا يقل ضرره، عن ذلك الفساد الذي ترتب ويترتب على فعل التجديد الغربي، وذلك الفعل المعرفي، العلمي المادي، الذي انتهى بالمادة النافعة إلى أن تصير قنبلة نووية وسلاحاً بيولوجياً وكيميائياً وجرثومياً. .. ثم انتهى بالمادة (العقل) إلى إعادة صياغة النظام الحيوي الوراثي، للكائنات الصياغة التي خلصت بالإنسان إلى التفسخ والخنثية والهجنة، وتخلص به إلى استخدام هذا النظام في تدميره وفنائه، حينما يصير ذلك (التشفير) الوراثي سلاحاً جديداً لكسب معركة الأرض ووراثتها. ..

ولكن المصلح، يظل ضرورة، ويظل ظهور الفساد إيذاناً بظهور المصلح. وكما أن التسلسل الكوني لخلق السماوات والأرض قضى بوجود السماء أولاً ثم الأرض ثم السماوات، ثم لا أرض وإنما سماء حسب بعد (فناء) الكون وقيام الساعة، كذلك حركية الإصلاح تقضي بوجود الصالح الكوني أولاً ثم ظهور الفساد ثم إصلاح الفساد، ثم لا فساد وإنما صلاح محض. وكما أن الأرض تتحرك بحركية السماء ومرتبطة بها، وإلا فإن أي خلل في حركية الشمس مثلاً يؤدي إلى فناء الأرض. كذلك يستدعي وجود المصلح وجود من ينتظم بحركته ويتحلق حوله. فالطبيعة الإنسانية مجبولة ومفطورة ومستعدة تماماً للانتظام كونياً على وفق ما هو نظامي. وما الإصلاح إلا مظهر لذلك النظامي. وإذن لانعدم دوماً وجود متحلقين حول المصلح (بشرائطه)، المصلح الذي لا يقطع صلته بالكوني السماوي (الوحي- الكتاب)، وإنما يستمد فعله من فاعلية ذلك السماوي. والمصلح الذي لا يعادي القديم، لأنه قديم، واهماً أن جديده -هو المصلح- أكفأ من القديم، وإنما يعيد استتباته وممازجته وملاقحته وملابسته. والمصلح الذي لا ينغلق انغلاق الأعمى على القديم، فيجانب الصواب لأنه في اللحظة التي يشاء فيها أن يعيد صلته بالقديم، يقطع صلته بالجديد. والقطع هاهنا يعني مجافاة الانسجام مع حركية المكان والزمان والفعل الإنساني. والمصلح الذي لا يتوهم أو ينخدع بالوسيلة ويتخذها غاية، ولا يقتصر على الشكلي دون المعنوي، والبصري دون البصيري والعقلي دون الوجداني والروحي. .. وفي ضوء كل مرات النفي السابقة (لا يعادي القديم، لا ينغلق، لا ينخدع. ..). يكتسب فعل الإصلاح على يد المصلح بلاغته. .. ولا بلاغة للإصلاح دونما أن نأخذ بنظر الاعتبار حركية هذه الخطاطة:

١. الصالح الكوني (السماء والأرض والإنسان وما يتعلق بوجود الإنسان)

٢. ظهور الفساد ﴿بما كسبت أيدي الناس﴾ في الأرض – دون السماء – وفي جسد الإنسان – دون روحه – وفيما يتعلق به من ممارسات.

٣. الإصلاح -إحلال الصالح محل الفاسد- في الأرض، وفي الإنسان وما يتعلق به، من قبل خالق السماوات والأرض والإنسان مباشرة، أو بوساطة نبي، ثم بوساطة غير النبي – بشرائط-.

جهتا الإصلاح:

للإصلاح جهتان؛

أولاً: جهة المصلح الأول أو جهة المصلح الإلهي. وهذه هي جهة الثابت أو الأول أو العميق أو الكلي أو الكوني أو المقدس. وهي جهة لا يجوز عليها التبديل والتحويل والتغيير، لأنها ليست جهة مادية شيئية قابلة للفناء وخاضعة لكينونة المكان والزمان، الخضوع القاضي بتغيرها وتبدلها وحركيتها وتحولها. "ليس هناك مقدس فيما هو بشري. البشري متغير. وكل ما عدا فكرة التوحيد وما يلازمها بصورة مباشرة هو بشري وقابل للتغيير"[(١)]. وكذلك النص القرآني، فهو ثابت من حيث هو بنية أو تركيب لساني، فهو ثابت إلهي، ولهذا لا يمكن اقتراح بديل للآية. أما استيضاحها وتمثلها فهو بشري وإذ هو كذلك فإنه يمثل الجهة الثانية للإصلاح لا الأولى. وكذلك السنة النبوية التي خاطبت الناس على قدر عقولهم. فالحديث النبوي قراءة فائقة ومكتملة للنص القرآني، وهذه هي جهة ثبوتها ووحيها الذي لم يكن عن الهوى. أما جهة حركيتها فلزيم بشرية الذات النبوية، ثم مخاطبة العقول على وفق سياقاتها المكانية والزمانية. ولهذا لا يجوز أن نجعل الحديث النبوي ضمن القرآن، أي بين دفتيه. فالسنة إذن "منهج وليس مؤدى حرفياً"[(٢)]. وهذا ما يفسر إشكالية الثبوت والحركة فيما يتعلق بالسنة. فالسنة التي هي تبيان للقرآن، بينت ما هو منسجم مع سياقات الكائن والمكان والزمان. ولو قدّر للنبي أن يبين لعقولنا اليوم، لجاء البيان مختلفاً عما كان عليه قبل ألف وأربعمائة من السنين، لا من حيث الجوهر أو المنهج أو الكلي، بل من حيث التلوين الخارجي أو المظهر الفوقي للحقيقة المعرفية. فالسنة حرامها حرام وحلالها حلال إلى يوم القيامة، ولكن ما عدا هذا قابل لتكوين قراءات جديدة، تستبطن السنة جوهراً وثابتاً عميقاً، ثم تعيد تشكيله وتكوينه بما يتواءم مع السياقات المعرفية المعاصرة، وبما ينسجم مع حركية الزمان والمكان، وقدر العقول، الذي هو غير قدر العقول قبل ألف أربعمائة من السنين.

---

(١) محمد حسن الأمين، مناهج التجديد، تحرير وحوار عبد الجبار الرفاعي، دار الفكر المعاصر، دمشق، ط١، ٢٠٠٠، ص ٧١.

(٢) نفسه، ص ٧٢، ٧٣.

ثانياً: جهة المصلح البشري. وهذه هي جهة المتغير والتالي والجزئي والمحدود. والذي تتميز به هذه الجهة، أنها يجب فيها الأمران؛ القيام بالإصلاح ووقوع الإصلاح عليها من قبل الجهة الأولى، ثم من قبل الجهة البشرية المماثلة لها. فهي قائم بالإصلاح وواقع عليها الإصلاح. ولهذه الجهة مريدان أو إرادتان، في ضوء الوعي بالإصلاح وإرادته حقيقة، أو العكس، ألا وهما:

أولاً: وهم الإصلاح/ المنافقون:

جاء في الكتاب العزيز في معرض تبيانه لصفات المنافقين، قوله سبحانه: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون. ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ (البقرة: ١١، ١٢). وصفة هؤلاء، أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. فهم ليسوا بالمؤمنين حقيقة باعتبار الصدق وعدم الارتياب دليلاً على الإيمان. وهذا ما يدعونا إلى بناء بعض النتائج المرتكزة على هذه الآية المباركة -خاصة حينما نقرنها بآية الإيمان الصادق سابقة الذكر-؛ ومن تلك النتائج: في الكذب واعتياده، فساد للنفس. وفساد النفس مدعاة لعمى وتذبذب معرفي، وإن لم يكن الكاذب واعياً أو مريداً لما هو عليه. بإن أول وأخطر أنواع الفساد، فساد النفس، فإذا فسدت النفس داخلاً وعمقاً، عجزت عن الوعي بما تعمل، وتوهمت الفاسد صالحاً.

١. إن فساد المنهج أو النظرية، ومن ثم فساد مقومات الإدراك الداخلي، يعني فساد التطبيقات والممارسات والمعطيات، ومن ثم فساد ما يترتب على الإدراك الخارجي.
٢. إن عدم الإيمان بالنظرية المعرفية من حيث هي ثابت وصالح، يعني مما يعني تطبيقات مغلوطة وقاصرة.
٣. إن الفساد الخارجي الذي يترتب على جهل المصلح، ليس بالضرورة أن يكون مشعوراً به شعور حس جزئي محدود وفي خلال زمن وجيز، وإنما هو مما يدركه العقل، ومما لا تتكشف حقيقته، إلا لمدرك بليغ يستقري فساده الداخلي الذي لا نتبين مظاهره إلا بعد حين.
٤. إن سعي البعض إلى تلقيح أو تحديث الديني المقدس والكوني الثابت، بالبشري الخاضع لحركية المكان والزمان، سعي خطير ينم عن جهل تام أو عن إصرار على الجهل وتجاهل للحقيقة المعرفية، انخداعاً بالحسي من مقومات النظرية البشرية. لذا فإن الركون إلى الحسي الترفيهي المديني على حساب العقلي الوجداني التقويمي، فعل فاسد، باعتبار أن الفساد هو: "خروج الشيء عن حال

استقامته وكونه منتفعاً به"[1]. أما إذا كان ثمه انتفاع، بذلك الفعل، فهو انتفاع وقتي ودنيوي جسدي لذّيّ حسب.

خلاصة القول في هذه الطائفة من المريدين، هي؛ أن صلاح هؤلاء الواهمين، صلاح ظاهراً وفساد باطناً وعمقاً وحقيقة، أو هو بين فاسد جلّه وصالح أقلّه في أحسن الأحوال. فهو نتاج فعل مزدوج مذبذب ولا بد أن يكون كذلك. وبموجب هذه البينيّة يختلف هذا الفعل عن فعل أولئك ﴿الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ (الشعراء: ١٥٢). وذلك لأن فعل هؤلاء فاسد ظاهراً وباطناً. ودائماً يكون هذا الفعل قرين الرفاهية المادية والنعومة والشره والعجب واللهو والكبرياء والغرور[2]... وبجملة القول، إنه قرين (اللذات الحسية وهي طلب المأكول والمشروب والمساكن الطيبة)[3]، وهذا ما تخلص بنا إليه بلاغة التبيان الإلهي وهو يقرن تلك الآية (الشعراء: ١٥٢)، بسابقاتها التي جعلت من قوم صالح وسيلة كشف وإبانة. يقول القرآن على لسان صالح عليه السلام لقومه: ﴿أتتركون في ما ههنا آمنين. في جنات وعيون. وزروع ونخل طلعها هضيم. وتنحتون من الجبال بيوتاً فارهين. فاتقوا الله وأطيعون. ولا تطيعوا أمر المسرفين. الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون﴾ (الشعراء: ١٤٦-١٥٣).

والذي لنا تبينّه بهدي من هذه الآيات معرفياً، هو:

- أن الرفاهية المسرف فيها نعومة وشرهاً ولهواً، وما يترتب عليها من عجب وغرور وكبرياء وجبروت، ثم ما يترتب عليها من لذاذات حسية طارئة، معوّق معرفي كبير ورئيس، وهي بالمحصلة معوّق إصلاح وسبب فساد داخلي وخارجي، نفسي وجسدي، فردي ومجتمعي، عقلي وحسي...

- وكما أن اللذة الحسية لذة طارئة، لأنها نتاج ما هو حسي، وزائل ومادي، كذلك ما يثير تلك اللذة في الأرض، ثم كذلك ما يرى من مقومات تلك الرفاهية المدينية اجتماعية كانت أم اقتصادية أو علمية... إلخ.

- إن الركون إلى الحسي يعني الركون إلى نهم الحواس وإسرافها، ومن ثم الائتمار بأمرها والاستجابة لمطالبها، مما يعني فساد صاحبها الفساد الكلي الذي لا ينتفع معه إصلاح البتة طالما هو منخرط في حسيته.

---

(١) الزمخشري، تفسير الكشاف، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٤١٥- ١٩٩٥م، ج١، ص ٧٠.

(٢) انظر تفسير البغوي، ج٣، ص ٣٣٧.

(٣) صفوة التفاسير، ج٢، ص ٣٣٧.

- الإسراف في الحسيات لا يقتصر على العيش ومتطلباته، وإنما يمتد إلى العلم ومناهجه ونظرياته ووسائله. وبناء على ذلك يصير الإسراف في العلوم المادية سبباً في فساد الأرض وما يقابلها بلاغياً (كل ما هو شيئي أو جسدي).

- وبقرن آيات الشعراء إلى آيتي البقرة السابقتين، نخلص إلى أن فساد الإنسان أو سقوطه وانحرافه؛ "ينبثق عن طريقين، أحدهما: الظلم وسحق حقوق الآخرين والخروج عن جادة العدالة، والثاني: الجهل"[1]. وكلا الطريقين مردّه إلى الركون إلى معرفية الحسي ومتطلباته.

ثانياً: الإصلاح الحق:

وهذا خاصة فاعلين اثنين، فاعل الوحي ممثلاً بالأنبياء والرسل، وفاعل العقل ممثلاً بغير النبي والرسول. كل حسب طاقته واستطاعته، وشرط انسجامه مع سياقات الواقع الذي يقع عليه الإصلاح مكاناً وزماناً وكائناً. والذي يشترط بالفاعل الثاني خاصة بغية مقاربة النفس الزكية التي للفاعل الأول هو تزكية النفس والصدق في الإيمان والإخلاص في القصد، ومن جهة أخرى، استبطان الفاعل الأول، قوله وعمله (سنته)، واتباعه والتكوّن به.

الإصلاح من الكوني إلى الإنساني:

ونقصد به، الإصلاح الإلهي الذي لم يُسبق بفساد إنساني، ويتمثل بـ:

إصلاح السماوات والأرض، وما يتعلق بهما. حركتهما الكونية ونظامهما الشيئي وما يتعلق بذلك. ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات والأرض﴾ (المؤمنون: ٧١). ﴿ولو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا﴾ (الأنبياء: ٢٢).

١. إصلاح الأنبياء والرسل: وهو إصلاح تكويني مرتبط بعلم الله الأزلي الذي يحيط بما هو كائن وما سيكون. ولأن الذي سيكون من هؤلاء الأنبياء هو الصالح كله، ختم عليهم بالصلاح مذ تكوينهم الأول. على أن الصلاح الذي نقصد، هو الصلاح المرتبط بعدم ارتكاب الذنوب، لا المرتبط بالعلم الكلي، فالعلم درجات تتفاوت بين الأنبياء، أما الصلاح المنبثق من إذهاب الرجس والطهارة النفسية، فهذا مما يتصف به الأنبياء والرسل بلا تفاوت، باعتبار أن الذي يترتب على الرجس هو الفساد، وهو لا يجوز على الأنبياء والرسل.

٢. إصلاح الإنسان. من حيث أن الصلاح هاهنا استعداد تكويني أول. فالفساد مرتبط بالإيمان وعدمه. وهذا مما فطر عليه الإنسان وهو في طور الذر. ثم هو مرتبط بالعمل،

(١) الإسلام ومتطلبات العصر، ص ٣٣.

وليس ثمة عمل بعد للمخلوق الأول بالأسباب المباشرة (آدم) عليه السلام، أو للمخلوق بالواسطة (التناسل)، وهو ما زال طفلاً.

ولأن الإنسان مخلوق للعبادة من حيث هي غاية أولى وأخيرة، ولأن العبادة مرتبطة بالعلم والتعلم، فقد أصلح الله سبحانه للإنسان علمه التكويني المجبول في جهازه العصبي وخلاياه وما يسميه علم الوارثيات المعاصر (الجينات الوراثية)، ثم أصلح له وسائله في التعلم، وخاصة سمعه وبصره ولسانه، ولهذا كله صار الإنسان خليفة الله في الأرض.

والذي يترتب على هذا الإصلاح استجابة لحركية المكان والزمان، ثم استجابة لحكمة الابتلاء والاختبار الإلهيين، هو الفساد الذي ﴿ظهر بما كسبت أيدي الناس﴾، ولكنه هاهنا، لا يطال المقدس من المتمثلات الأربع السابقة. أي أنه لا يطال جانب التزكية الإلهية ممثلة بالنظام الداخلي للسماوات والأرض والأنبياء والملائكة والجن والإنسان. وقد ينتظم المتمثل على وفق ذلك النظام، فيطابق الخارج الداخل وهذا ما تحقق للأنبياء والملائكة والسماوات، وقد يختلف ويبتعد الانتظام الخارجي عن الداخلي فيحصل الفساد فيما هو شيئي ومنتظم لا فيما هو نظام داخلي. وهذا ما يحصل للإنسان وبحصوله في نفس الإنسان يحصل ويظهر في الأرض وما يتعلق بها من كائنات وأنظمة. فيستلزم العود إلى ذلك الصالح الكوني.

أما أسباب فساد الإنسان ثم فساد البر والبحر، وقنوات الإفساد، التي ببيانها يبين ويتضح ما يجب أن يقع عليه الإصلاح، فهي قرآنياً:

- الهوى والرغائب الشهوية النفسية: ﴿ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت الأرض﴾ (المؤمنون: ٧١).
- الازدواجية في الهوية، أو الكذب: ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾ (البقرة: ١١).
- الجهل المعرفي: ﴿ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾ (البقرة: ١٢).
- اتباع السبل المادية ونظرياتها ومناهجها في الإصلاح المزعوم: ﴿اخلفني في قومي وأصلح ولا تتبع سبيل المفسدين﴾ (الأعراف: ١٤٢). وببيان الآية نفسها، نستقري سبباً آخر ألا وهو، عدم المداومة على الإصلاح والانقطاع عنه.
- الانكباب على الدنيا دون الآخرة، أو على الزائل المنقضي دون الدائم: ﴿وارجوا اليوم الآخر ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ (العنكبوت: ٣٦).
- سلب الناس حقوقهم ظلماً وجوراً، أياً كان نوع تلك الحقوق: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾ (هود: ٨٥).
- الطغيان والجبروت والظلم: ﴿الذين طغوا في الأرض فأكثروا الفساد﴾ (الفجر: ١٢).

- الجرأة على القيمي والاستغناء عنه وعن العلوق بوسائله ومنها؛ الدعاء. أو الاستغناء بالخلق عن المخلوق: ﴿ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها وادعوه خوفاً وطمعاً﴾ (الأعراف: ٥٦).
- قطع ما أمر الله به أن يوصل، أو التفكك الاجتماعي: ﴿ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون﴾ (البقرة: ٢٧).
- قتل النفس الإنسانية (قتل الذات أو قتل الآخر) بغير الحق: ﴿من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعاً﴾ (المائدة: ٣٢).
- الحروب، المترتبة على حب الملك والسلطة: ﴿إن الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها﴾ (النمل: ٣٤).
- النعرات الطائفية وشيوع التعصب الديني. يقول تعالى مخاطباً الذين ظلموا من اليهود: ﴿لتفسدن في الأرض مرتين﴾ (الإسراء: ٤).
- جعل الفساد وسيلة وغاية. أو انعدام الإحسان: ﴿وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض﴾ (هود: ١١٦).
- عدم المداومة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: ﴿فلولا كان من القرون من قبلكم أولوا بقية ينهون عن الفساد في الأرض﴾ (هود: ١١٦).
- تبديل الدين: ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ (غافر: ٢٦). وتبين الآية عن سبب آخر، هو المجاهرة بالفساد وإعلانه.
- الشعوذة والأعمال الشيطانية: ﴿إن يأجوج ومأجوج مفسدين في الأرض﴾ (الكهف: ٩٤). وفي السحر بوصفه نوعاً من أنواع الركون إلى فساد النفس داخلاً (النفس الإنسانية)، وخارجاً (الاستعانة بالجنّ والنجاسات...)، يقول تعالى: ﴿إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين﴾ (يونس: ٤٠).
- إهانة المرأة نفسياً وجسدياً، وانتهاك حرمتها الأخلاقية، بتوجيهها توجيهاً خاطئاً والاعتداء عليها، زنى طوعياً أو اغتصاباً: ﴿يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم إنه كان من المفسدين﴾ (القصص: ٤).
- محاربة الله ورسوله: ﴿إنما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا﴾ (المائدة: ٣٣).
- إرادة العلو في الأرض: ﴿نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً﴾ (القصص: ٨٣).
- عدم الائتمار بأمر الله: ﴿آلآن وقد عصيت من قبل وكنت من المفسدين﴾ (يونس: ٤٠).
- انعدام العدل: ﴿أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض﴾ (ص: ٢٨).
- تولية من لا يستحق التولية على المسلمين أياً كان نوع التولية: ﴿فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض﴾ (محمد: ٢٢).

- قصد الخيانة والإفساد في الأموال واستحصال الأجر عليها باطلاً. قال سبحانه وتعالى في أموال اليتامى: ﴿ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح﴾ (البقرة: ٢٢٠)، وتبين الآية عن سبب آخر، ألا وهو انعدام التكافل الاجتماعي والمؤاخاة.
- تولية المشركين أمور ا لمسلمين، والتسنن بقوانينهم وأنظمتهم وتشريعاتهم ومنها التشريعات المتعلقة بنظام الحكم والنظام القضائي والقانون المدني الذي يفصل بين الدين والدولة، أو بين الدين والمجتمع: ﴿والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير﴾ (الأنفال: ٧٣). وتبين الآية عن سبب آخر، ألا وهو إشاعة الفتن أيا كان نوعها.

شروط المصلح:

للإصلاح نوعان، بحسب الجهة التي يقع عليها. فهو إصلاح داخلي خارجي، للفرد وللجماعة أو الأمة. أما الإصلاح الداخلي فكائن في العمق من الفرد ومن الأمة على السواء. وعلى المصلح الذي يريد الإصلاح إجراء ذلك الإصلاح الداخلي على نفسه أولاً، فإن أجراه عليها، سعى إلى إجرائه على وفي الأمة، لا من حيث هي مظاهر مادية ووسائل حضارية، بل من حيث أن الأمة ظاهرة وغاية عبادية، ولتحقيق ذلك الإصلاح الداخلي، أسباب وشرائط هي ذاتها المعطيات والنتائج، المترتبة على الإصلاح داخلاً وخارجاً. وهي ذاتها شروط المصلح، ألا وهي:

- الإيمان: ﴿فمن آمن وعمل صالحاً فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ (الأنعام: ٤٨). وتبين الآية عن شرط آخر، أو معطى مترتب على الشرط ألا وهو، الشجاعة والجرأة وعدم الأسى والأسف على ما يواجه المصلح من مصاعب ومعوقات واتهامات.
- التوبة: ﴿وإني غفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى﴾ (طه: ٨٢). وتبين الآية عن معطى من معطيات تلك التوبة المقرونة بالعمل الصالح، ألا وهو الهداية، فالهداية هنا معطى التزكية النفسية والتطهير من الرجس. فالمراد بـ ﴿ثم اهتدى﴾ كما جاء في تفسير البغوي، "تعلم العلم ليهتدى به كيف يعمل"[١].
- العفو: ﴿فمن عفا وأصلح فأجره على الله﴾ (الشورى: ٤٠).
- التقوى: ﴿فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾، (الأعراف: ٣٥).

(١) انظر تفسير البغوي، ج٣، ص ١٩١.

- الدعوة إلى الله: ﴿فمن أحسن قولاً ممن دعا إلى الله وعمل صالحاً﴾ (فصلت: ٣٣).
- الإبانة والإظهار المعرفي ممثلاً بالصدق في الإبانة والاجتهاد في، وعن طريق المنزل، إظهاراً وكشفاً وإيضاحاً لما تم الاهتداء إليه بهداية الله سبحانه، وإن كان مخالفاً لكثير مما صار مقدساً مما هو بشري، وما هو بمقدس: ﴿إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيّنّاه للناس في الكتاب أولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم﴾(البقرة: ١٦٠).
- البرّ: ﴿أن تبروا وتتقوا وتصلحوا بين الناس﴾ (البقرة: ٢٢٤).
- التمسك بالمقدس: ﴿إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله﴾ (النساء: ١٤٦)، وتبين الآية عن، معطى آخر من معطيات الإصلاح، ألا وهو الاعتصام بالله. فالاعتصام بالله سبب الإصلاح ونتيجته، فهو أي الاعتصام باطن الإصلاح وظاهره، أوله وآخره، وسيلته وغايته.
- إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم﴾(البقرة: ٢٧٧).
- الإيمان العام (بالرسل والأنبياء وكتبهم)، والإيمان الخاص بما نزّل على نبي الرحمة محمد، صلوات الله عليه وعلى الرسل والأنبياء جميعاً. ﴿والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزّل على محمد وهو الحق من ربهم كفّر عنهم سيئاتهم﴾ (محمد: ٢).
- تعاهد الحق والصبر على ما يترتب على فعل الإصلاح من صعوبات ومكاره؛ منشؤها تعاهد الباطل والجزع، ومن قبل عدم الإيمان وشيوع الفساد، والشك والريبة بالسماوي: ﴿والعصر. إن الإنسان لفي خسر. إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر﴾ (سورة العصر).
- الإخبات، أي الاطمئنان إليه سبحانه وتعالى والخشوع له والانقطاع إلى أسبابه[1].﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأخبتوا إلى ربهم أولئك أصحاب الجنة﴾، (هود: ٣)، وإذ، نتذكر، أن في هذه الآية توصيف لعلاقة العباد بالمعبود، ثم نقرن هذه العلاقة بعلاقة الرعية بالراعي، شرط صلاحه المشروط، نخلص إلى إبانة جديدة تتعلق بعلاقة الأمة –الجماعة أياً كانت- بالمصلح، أياً كان نوع إصلاحه.

(١) انظر تفسير البغوي، ج٢، ص ٣١٩.

- العدل والقسط: ﴿فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا﴾ (الحجرات: ٩).

الكلمة الطيبة، من باب ا لدعوة إلى الحق بالحكمة والموعظة، والمجادلة بالتي هي أحسن، سواء كانت الدعوة دعوة النفس أم دعوة الآخر، فرداً أم أمة، باعتبار أن فعل الإصلاح نوع من أنواع الدعوة إلى الله سبحانه: ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾، (فاطر: ١٠).

وأخيراً، فالإصلاح الخارجي أياً كان نوعه، مجتمعياً أو علمياً أو سياسياً أو اقتصادياً، ما هو إلا مظهر حسي للإصلاح الداخلي. فالإصلاح الخارجي، انتظام الفعل البشري على وفق نظام الفعل الإلهي في العميق والكلي الباطن والمجرد في الآفاق وفي الأنفس. فالإصلاح الخارجي اجتهاد في الوصول إلى بلاغة ذلك الصالح الداخلي. وما وسيلة الوصول إلى ذلك الصالح إلا الكتاب، القرآن، بوصفه مصدراً منشئاً للمعرفة[1]، "إن القرآن المجيد - وحده- الكتاب الكوني الذي يمكن أن يقدم للبشرية اليوم التصور المنهجي البديل، ويحدث حالة التجديد على مستوى عالمي، وتتم له الهيمنة بعد التصديق على مناهج هذه العلوم على النسق المعرفي العالمي المعاصر"[2].

---

(١) انظر طه جابر العلواني، مناهج التجديد (مصدر سابق)، ص ١١٥.

(٢) المصدر نفسه، ص ١١٩.